ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قبل أن يطلب منا سبحانه ألا نفتتن بالشيطان ، أوضح أنه قد رتب لنا كل مقومات الحياة ، وعلينا أن نتذكر موقف الشيطان ، من أبينا آدم وإغواءه له .

والفتنة فى الأصل هى الاختبار ، وتُطلق - أحياناً - على الأثر السيئ حيث تكون أشد من القتل ، لكن هل يسقط الإنسان فى كل فتنة ؟ لا ؛ لأن الفتنة هى الاختبار ، وفى الاختبار إما أن ينجح الإنسان ، وإمّا أن يرسب ، فإن نجح أعطته الفتنة خيراً وإن رسب تعطه شراً .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى قصة خلق آدم ، وأعلمنا أنه خلقه للخلافة فى الأرض ، وأن موضوع الجنة هو حلقة مقدمة لتلقى الخلافة ؛ لأنه إذا ما أصبح خليفة فى الأرض ؛ فلله منهج يحكمه فى كل حركاته ، ومادام له منهج يحكمه فى كل حركاته فرحمة به لم ينزله الله للأرض ابتداءً ليتلقى المنهج بدون تدريب واقعى على المنهج ، فجعل الجنة مرحلة من مراحل ما قبل الاستخلاف فى الأرض ، وحذره من الشيطان الذى أبى أن يسجد له ، وأراد منه أن يأخذ التجربة فى التكليف . وكل تكليف محصور فى « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » ؛ لذلك شاء الله أن يجعل له فى الجنة فترة تدريب على المهمة ؛ لينزل إلى الأرض مباشراً مهمة الخلافة بعد أن زود بالتجربة الفعلية الواقعية ، وأوضح له : أَنْ كُلْ مِنْ كُل ما فى الجنة ، ولكن لا تقرب هذه الشجرة . و﴿ كُلْ ﴾ أَمْرٌ ، و﴿ لا تقرب ﴾ نَهْىٌ . وكل تكليف شرعى هو بين « لا تفعل » وبين « افعل » .

وبعد ذلك حذره من الشيطان الذى يضع ويجعل له العقبات فى تنفيذ منهج الله ، فلما قرب آدم وحواء الشجرة وأكلا منها ؛ خالفا أمر الله فى ﴿ولا تقربا﴾ ، وأراد الله أن يبين لهما بالتجربة الواقعية أن مخالفة أمر الله لابد أن ينشأ عنها عورة تظهر فى الحياة ، فبدت له ولزوجته سوءاتهما ، فلما بدت لهما سوءاتهما علم كل منهما أن مخالفة أمر الله تُظهر عورات الأرض وعورات المجتمع ، فأمره الله : أن اهبط إلى الأرض مزوداً بهذه التجربة .

ولما هبط آدم وزوجه إلى الأرض أرسل إليه منهج السماء بعد التجربة ، وأراد أن يبين لنا أنه عصى أمر ربه فى قوله : ﴿ ولا تقربا ﴾ ، وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه ، وأراد سبحانه أن يبين لنا أن آدم يتمثل فيه أنه بشر يصيب ويخطئ ، وتدركه الغفلة ، وقد يخالف منهج الله فى شىء ، ثم يستيقظ من غفلته فيتوب ، وبعد أن كلفه أن يبلغ رسالة الله وصار نبيًّا ؛ جاءت له العصمة فلا يغفل ولا ينسى فى تبليغ الرسالة .

ولذلك يجب أن نفطن إلى النص القرآنى :

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

إنَّ هذه طبيعة البشر أن يعصى ثم يتوب إن أراد التوبة ، ولابد أن نفطن أيضاً إلى قوله الحق : ﴿ ثم اجتباه ربه ﴾ .

إذن فالاصطفاء جاء بعد المعصية ؛ لأن عصيانه كان أمراً طبيعيًّا لأنه بشر ، يخطئ ويصيب ، ويسهو ويغفل . ولكن بعد أن خرج من الجنة اجتباه الله ليكون نبيًّا ورسولاً ، ومادام قد صار نبيًّا ورسولاً فالعصمة تأتى له :

﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾

(سورة طه)

إذن لا يصح لنا أن نقول : كيف يعصى آدم وهو نبى ؟! نقول : تنبه إلى أن

النبوة لم تأته الا بعد أن عصى وتاب ؛ فهو يمثل مرحلة البشرية لأنه أبـو البشـرية كلها ، والبشرية منقسمة إلى قسمين : بشر مبلغون عن الله ، وأنبياء يبلغون عن الله ، فله فى البشرية أنه عصى ، وله فى النبوة أن ربه قد اجتباه فتاب عليه وهداه. والذين يقولون : إن آدم كان مخلوقاً للجنة ، نقول لهم : لا . افهموا عن الله ، لأنه يقول : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ .

إن أمـر الجنة كـان مـرحلة من المراحل التى سبقت الخـلافة فى الأرض . انـها كانت تدريباً على المهمة التى سيقوم بها فى الأرض ، والا فلو أن آدم قد خلقه الله للجنة وأن الـمعصية أخرجته ، الا أن الله قد قبل منه توبته ، ومادام قبل توبته فكان يجب أن يبقيه فى الجنة ، ومن هنا نقول ونؤكد أن الجنة كانت مرحلة من المراحل التى سبقت الخلافة فى الأرض . وبعد ذلك يريد الحـق سبحانه وتعالى أن يخلع علينا التجربة لآدم حتى نتعظ بها ، وأن نعرف عداوة الشيطان لنا ، وألا نقع فى الفتنة كما وقع آدم .

﴿ يَـٰبَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَـٰـنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا .. (٢٧) ﴾ [سورة الأعراف]

وهـذا نـهى لبنى آدم وليس نهيـا للشيطان ، وهـذا فى مُكنة الإنسـان أن يفـعل أو لا يفعل ، فسبحانه لا ينهى الإنسان عن شىء ليس فى مكنته ، بل ينهاه عما فى مكنته ، والشيطان قد أقسم أن يفتنه وسيفعل ذلك لأنه أقسم وقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ . فإياكم أن تنخدعوا بفتنة الشيطان ؛ لأن أمـره مـع أبيكم واضح ، ويجب أن تنسحب تجربته مع أبيكم عليكم فلا يفتننكم كما أخرج أبويكم من الجنة ، ويتسـاءل البـعض : لماذا لم يقل الله : لا يفـتننكم الشيطان كـمـا فـتن أبويـكم ، وقـال : «لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة» ؟ . ونقـول : هذا هو السمو والافتنان الراقى فى الأداء البيانى للقرآن .

وإن هذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يخرجنا من جنة التكليف . كـمـا فـتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة . ويقال عن هذا الأسلوب إنه أسلوب احتباك ،

وهو أن تجعل الكلام شطرين وتحذف من كل منهما نظير ما أثبت فى الآخر قصد الاختصار. وهذا هو الأسلوب الذى يؤدى المعنى بمنتهى الإيجاز؛ لينبه ذهن السامع لكلام الله. فيلتقط من الأداء حكمة الأداء وإيجاز الأداء، وعدم الفضول فى الأساليب.

﴿ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ .. (٢٧) ﴾ [سورة الأعراف]

والفتنة - كما علمنا - هى فى الأصل الاختبار حتى ننقى الشىء من الشوائب التى تختلط به، فإذا كانت الشوائب فى ذهب فنحن نعلم أن الذهب مخلوط بنحاس أو بمعدن آخر، وحين نريد أن نأخذ الذهب خالصاً نفتنه على النار حتى ينفض ويزيل عنه ما علق به. كذلك الفتنة بالنسبة للناس، إنها تأتى اختباراً للإنسان لينقى نفسه من شوائب هذه المسألة، وليتذكر ما صنع إبليس بآدم وحواء. فإذا ما جاء ليفتنك فإياك أن تفتن؛ لأن الفتنة ستضرك كما سبق أن الحقت الضرر بأبيك آدم وأمك حواء. والشيطان هو المتمرد على منهج الله من الجن، والجن جنس منه المؤمن ومنه الكافر. فقد قال الحق سبحانه:

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ .. (١١) ﴾ [سورة الجن]

والشيطان المتمرد من هذا الجنس على منهج الله ليس واحداً، واقرأ قول الحق سبحانه:

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ .. (٥٠) ﴾ [سورة الكهف]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧) ﴾ [سورة الأعراف]

و«قبيله» هم جنوده وذريته الذين ينشرهم فى الكون ليحقق قَسَمَه:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

إذن ففتنة الشيطان إنما جاءت لتخرج خلق الله عن منهج الله ، وحينما عصى إبليس ربّه عزّ عليه ذلك ، فبعد أن كان فى قمة الطاعة صار عاصيًا لأمر الله معصية أدّته وأوصلته إلى الكفر ؛ لأنه ردّ الحكم على الله . إن ذلك قد أوغر صدره وأحنقه ، وجعله يوغل ويسرف فى عداوة الإنسان لأنه عرف أن طرده ولعنه كان بسبب آدم وذريته .

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أن المراد ذرية الشيطان ، فلو كان المراد شياطين الإنس معهم لما قال : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ .

وعلى ذلك فهذه الآية خاصة بالذرية ، ويعلمنا الحق سبحانه وتعالى أن نتنبه إلى أن الشيطان لن يكتفى بنفسه ولن يكتفى بالذرية بل سيزين لقوم من البشر أن يكونوا شياطين الإنس كما وُجد شياطين الجن ، وهم من قال فيهم سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

وكلمة « زخرف القول » تعنى الاستمالة التى تجعل الإنسان يرتكب المعصية وينفعل لها ، ويتأثر بزخارف القول . وكل معصية فى الكون هكذا تبدأ من زخرف القول ، فللباطل دعاته ، ومروجوه ، ومعلنوه ، إنهم يزينون للإنسان بعض شهواته التى تصرفه عن منهج الله ، ونلاحظ أن أعداء الله ، وأعداء منهج الله يترصدون مواسم الإيمان فى البشر ، فإذا ما جاء موسم الإيمان خاف أعداء الله أن يمر الموسم تاركاً هبة إيمان فى نفوس الناس ، فيحاولوا أن يكتلوا جهودهم حتى يحرموا الناس نفحة الموسم ، فإذا ما حرموا الناس من نفحة الموسم فقد حققوا

غرضهم فى العداوة للإسلام . ﴿ إنه يراكم هو وقبيله ﴾ .

إن الشيطان يراكم أيها المكلفون هو وقبيله . والقبيل تدل على جماعة أقلها ثلاثة من أجناس مختلفة أو جماعة ينتسبون إلى أب وأم واحدة . واختلف العلماء حول المراد من هذا القول الكريم ؛ فقال قوم : ﴿ إنهم جنوده وذريته ﴾ . ويقصدون جنوده من البشر ، ولم يلتفتوا إلى قول الحق :﴿ من حيث لا ترونهم ﴾ فلابد أن يكون المراد بالقبيل هنا الذرية ؛ لأننا نرى البشر ، وفى قوله الحق تغليظ لشدة الحذر والتنبه ؛ لأن العدو الذى تراه تستطيع أن تدفع ضرره ، ولكن العدو الذى يراك ولا تراه عداوته شديدة وكيده أشد ، والجن يرانا ولا نراه ، وبعض من العلماء علل ذلك لأننا مخلوقون من طين وهو كثيف ، وهم مخلوقون من نار وهى شفيفة .

فالشفيف يستطيع أن يؤثر فى الكثيف ، بدليل أننا نحس حرارة النار وبيننا وبينها جدار ، ولكن الكثيف لا يستطيع أن يؤثر فى الشفيف ولا ينفذ منه . إذن فنفوذ الجن وشفافيته أكثر من شفافية الإنسان ، ولذلك أخذ خفة حركته . ونحن لا نراه .

إذن معنى ذلك أن الشيطان لا يُرى ، ولكن إذا كان ثبت فى الآثار الصحيحة أن الشيطان قد رُئى وهو من نار ، والملائكة من نور ، والاثنان كل منهما جنس خفى مستور ، وقد تشكل المَلك بهيئة إنسان ، وجاء لرسول الله وقال لنا صلى الله عليه وسلم : « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم »[١] .

وعلى ذلك رأى السابقون المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل لا على صورة ملائكيّته ، ولكن على صورة تتسق مع جنس البشر ، فيتمثل لهم مادة .

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الشيطان وقال : « إن عفريتا من الجن جعل يفتك علىّ البارحة ليقطع علىّ الصلاة ، وإن الله أمكننى منه فَذَعَتُّهُ فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون »[٢] .

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان .
(٢) رواه مسلم فى المساجد ، والبخارى فى الصلاة ، وأحمد ، ومعنى : « فَذَعَتُّهُ » : أى خنقته .

وذلك من أدب النبوة . إذن فالشيطان يتمثل وأنت لا تراه على حقيقته ، فإذا ما أرادك أن تراه . . فهو يظهر على صورة مادية . وقد ناقش العلماء هذا الأمر نقاشاً يدل على حرصهم على فهم كتاب الله ، ويدل على حرصهم على تجلية مراداته وأسراره ، فقال بعضهم : حين يقول الله إن الشيطان يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، لابد أن نقول : إننا لن نراه .

وأقول : إن الإنسان إن رأى الجنى فلن يراه على صورته ، بل على صورة مادية يتشكل بها ، وهذه الصورة تتسق وتتفق مع بشرية الإنسان ؛ لأن الجنى لو تصور بصورة مادية كإنسان أو حيوان أو شيء آخر يمكن أن يراه الإنسان ، وحينئذ لفقدنا الوثوق بشخص من نراه ، هل هو الشيء الذى نعرفه أو هو شيطان قد تمثل به ؟

إن الوثوق من معرفة الأشخاص أمر ضرورى لحركة الحياة ، وحركة المجتمع ؛ لأنك لا تعطف على ابنك الا لأنك تعلم أنه ابنك ومحسوب عليك ، ولا تثق فى صديقك الا إذا عرفت أنه صديقك . ولا تأخذ علماً إلا من عالم تثق به . وهب أن الشيطان يتمثل بصورة شخص تعرفه ، وهنا سيشكك هذا الشيطان ويمنع عنك الوثوق بالشخص الذى يتمثل فى صورته . وأيضاً أعدى أعداء الشيطان هم الذين يبصرون بمنهج الله وهم العلماء ، فما الذى يمنع أن يتشكل الشيطان بصورة عالم موثوق فى علمه ، ثم يقول كلاماً مناقضاً لمنهج الله ؟ .

إذن فالشيطان لا يتمثل ، هكذا قال بعض العلماء ، ونقول لهم : أنتم فهمتم أن الشيطان حين يتمثل ، يتمثل تمثلاً استمرارياً ، لا . هو يتمثل تمثل الومضة ؛ لأن الشيطان يعلم أنه لو تشكل بصورة إنسان أو بصورة مادية لحكمته الصورة التى انتقل اليها ، وإذا حكمته الصورة التى انتقل اليها فقد يقتله من يملك سلاحاً ، انه يخاف منا أكثر مما نخاف منه ، ويخاف أن يظهر ظهوراً استمرارياً ؛ لذلك يختار التمثل كومضة ، ثم يختفى ، والإنسان إذا تأمل الجنى المشكل . سيجد فيه شيئاً مخالفاً ، كأن يتمثل - مثلا - فى هيئة رجل له ساق عنزة لتلتفت إليه كومضة ويختفى ؛ لأنه يخاف أن تكون قد عرفت أن الصورة التى يتشكل بها تحكمه . وإذا عرفت ذلك أمكنك أن تصرعه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾ [سورة الأعراف]

والشياطين من جَعْل الله ، وسبحانه خلّى بينهم وبين الذين يريدون أن يفتنوهم والا لو أراد الله منعهم من أن يفتنوهم . لفعل . . إذن فكل شيء في الوجود ، أو كل حدث في الوجود يحتاج إلى أمرين : طاقة تفعل الفعل ، وداع لفعل الفعل . فإذا ما كانت عند الإنسان الطاقة للفعل ، والداعي إلى الفعل ، فإبراز الفعل في الصورة النهائية نستمدها من عطاء الله من الطاقة التي منحها الله للإنسان . فأنت تقول : العامل النساج نسج قطعة من القماش في غاية الدقة ، ونقول : إن العامل لم ينسج ، وإنما نسجت الآلة ، والآلة لم تنسج ، لكن الصانع الذي صنعها أرادها كذلك ، والصانع لم يصممها الا بالعالِم الذي ابتكر قانون الحركة بها .

إذن فالعامل قد وجّه الطاقة المخلوقة للمهندس في أن تعمل ، واعتمد على طاقة المهندس الذي صنعها في المصنع ، والمهندس اعتمد على طاقة الابتكار وعلى العالم الذي ابتكر قانون الحركة ، والعالم قد ابتكرها بعقل خلقه الله ، وفي مادة خلقها الله .

إذن فكل شيء يعود إلى الله فعلاً ؛ لأنه خالق الطاقة ، وخالق من يستعمل الطاقة ، والإنسان يوجه الطاقة فقط ، فإذا قلت : العامل نسج يصح قولك ، وإذا قلت : الآلة نسجت ، صح قولك ، وإذا قلت : إن المصنع هو الذي نسج صح قولك . إذن فالمسألة كلها مردها في الفعل إلى الله . وأنت وجهت الطاقة المخلوقة لله بالقدرة المخلوقة لله في فعل أمر من الأمور . فإذا قال الله ﴿إنا جعلنا الشياطين﴾ أي خلّينا بينهم وبينهم المفتونين بهم ، غير أننا لو أردنا الا يفتنوا أحداً لما فتنوه . وهذا ما فهمه إبليس .

﴿ .. لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [سورة ص]

إذن من يريده الله معصوماً لايستطيع الشيطان أن يغويه، وتعلم الشياطين أن الله خلّى بينهم فى الاختيار، وهذه اسمها تخلية؛ ولذلك لامعركة بين العلماء. فمنهجهم أن الطاقة مخلوقة لله، ونسب كل فعل إلى الله، ومنهم من رأى أنّ موجّه الطاقة من البشر فينسب الفعل للبشر، ومنهم من رأى طلاقة قدرة الله فى أنه الفاعل لكل شيء، ومنهم من قال: إن الإنسان هو الذى فعل المعصية . . أى أنه وجه الطاقة إلى عمل والطاقة صالحة له، فربنا يعذبه على توجيه الطاقة للفعل الضار ولاخلاف بينهم جميعاً .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (من الآية ٢٧ سورة الأعراف

إذن جعل الله الشياطين أولياء لمن لم يؤمن، ولكن الذى آمن لايتخذه الشيطان وليّا.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

والفاحشة مأخوذة من التفحش أى التزيد فى القبح، ولذلك صرفها بعض العلماء إلى لون خاص من الذنوب، وهو الزنا، لأن هذا تزيد فى القبح، فكل معصية يرتكبها الإنسان تنتهى بأثرها، لكن الزنا يخلف آثاراً . . فإمّا أن يوأد المولود، وإما أن تجهض المرأة، وإما أن تلد طفلها وتلقيه بعيداً، ويعيش طريداً فى المجتمع لايجد مسئولاً عنه، وهكذا تصبح المسألة ممتدة امتداداً أكثر من أى معصية أخرى. وتصنع هذه المعصية الشك فى المجتمع. ولنا أن نتصور أن إنساناً يشك فى أن من ينسبون إليه ويحملون اسمه ليسوا من صلبه، وهذه بلوى